التنظير الأدبي

تمتدُّ جذور التّنظير الأدبي أو النظرية الأدبية إلى عصورٍ سحيقةٍ وقديمة قدم الأدب في حدّ ذاته منذ العصر اليوناني عند الغرب، أو العصر العربي القديم في الثّقافة العربية أو غيرها من الثقافة الشّرقية، ولكن التنظير الأدبي بالمعنى العلمي الأكاديمي لم يبرزْ إلّا في العصر الحديث. فنظرية الأدب موجودة من قبل، غير أنّه يمكن القول إنّها ميتةٌ، وآن لها أن تحيَا الآن، وتأخذ الطّابع العلمي الأكاديمي، فهي أي النّظرية تجعلنا نقوم بالعمل بوعي، نسأل أنفسنا لماذا نفعل هذا الشيئ؟ ! وأهم الأسئلة التي تطرحها نظرية الأدب هي السؤال عن طبيعة الأدب وماهيته؟ وبطبيعة الحال فإن الإجابة على هذا السّؤال ظلت متباينة، فالموضوع،حول طبيعة الأدب، لم يتمْ حسمُه، وبذلك، فإن الإشكاليةَ تظل قائمةً، بل ومنْفَتِحةً على المزيد من الأبحاث في هذا الاتجاه [1]

ولعلّ أهم محاولات الإجابة عن سؤال: ما الأدب؟ هي تلك التي قام بها الفيلسوف الوجودي الفرنسي "جانْ بُولْ سارْتر"، وتأتي أهمية ما توصل إليه "سارتر" من أهميته ليس كمفكر فقط، بل ومنتج للأدب أيضا، فقد أبدع العديدَ من النصوص الروائية والقصصية، وتفوق في نصوصه المسرحية العظيمة. وهنا تكمن أهمية "سارتر" إذ أنه يضع خرائطَ لجبالٍ قدْ تسلَّقها بالفعل، وبالتالي فانه يعرفُ دُرُوبَها وأخطارَها عن خبرة ذاتيَّةٍ[2]. ومن وجهة نظر "سارتر" التي تأثرت بها- بل وصاغتها- النظرة الوجودية الماركسية التي يعتنقها، نجد أن علاقة الكاتب بمجتمعه والواقع الذي يعيش فيه، كانت المنظور الأساسي، الذي حاول-من خلاله - أن يجيب على التّساؤل السابق.كما كان من الطبيعي أن يؤديَّ هذا المنظور ب"سارتر" إلى اعتناق فكرة "التزام الأدب"، باعتبار أنه مُنْتَجٌ اجتماعي بالأساس، رغم صِبْغته الفردية، فقد كانت أهم نقاط ارتكاز الوجودية مبدأ "الإنسان في العالم"، ولأن الكاتب إنسان بطبيعته، فإنّ وجوده الواقعي يمثل هُوّيَةً أدبية له، يستحيل أن يخرج عليها، لقد انسحب مفهوم الالتزام، من وجهة نظر سارتر، على كل أفرع الأدب النثري، إلا أنّ سارتر قد تجاوز عن النصوص الشعرية، فأخرجَها من دائرة الالتزام، باعتبار أن

1- عبد العزيز الموافي: ما الأدب؟ بين سارتر وايجلتون ، مجلة نزوى، بتاريخ 1 أكتوبر2001، https://www.nizwa.com . تاريخ الزيارة 2020/07/03

2- عبد العزيز الموافي: المرجع السابق.

الشّعر خطابٌ تشكل لغته غايةً في ذاتها، ومن هنا، كان البحث عن طبيعة الأدب، والأمر كذلك، يسير في عدة دروب متوازية، تمثلت في ثلاثة اتجاهات رئيسية:

–لماذا نكتب؟

–لمن نكتب؟

–موقف الكاتب من العالم.

إن تناول سارتر لطبيعة الأدب، باعتباره مفكرا وفيلسوفا أصيلًا، قد تميّز بالعمق، إلا أَنَّ تناولَه لمفهوم القراءة قد بدَا سطْحيا، وهذا أمر طبيعي في حالتنا هذه. فلم تكن نظريات القراءة قد تشكّلتْ بعد في صيغتها السائدة الآن، ولم تكن مصطلحاتُها قد استقرت بعد، لذلك، فقد بدا طرحُ "سارتر" في هذا الاتجاه، بين الكاتب والقارئ من ناحية، والقارئ والنص من ناحية ثانية، مجردَ فرضياتٍ أولية، تحْبُو على أرضية نظرية التلقي. وفي المقابل، فإن آراءَه فيما يتعلق بمفهوم: الالتزام والحرية، كانت تشكل ركنًا أساسيا في النقد الأيديولوجي، الذي ساد في حقبة الخمسينيات والستينيات من القرن العشرين، وبذلك، كان سارتر نجمَ هاتين الحقبتين، ليس في مجال الفلسفة وحدَها، بل وفي مجال الأدب أيضا، في كل أنحاء العالَم. وعلى الجانب الآخر، نجد "تيري إيجِلْتُون" النّاقد والمفكر الانجليزي الشّهير، والذي يعد واحدا من ألمع منظري الأدب في الغرب في النصف الثاني من القرن العشرين، قد تساءل - بدوره - في كتابِه "مقدمة في نظرية الأدب": ما الأدب؟ وقد حاول في الفصل الأول من هذا الكِتاب أن يقدم إجابتَه حول هذا التّساؤل، باعتباره يمثل إشكاليةً أساسيةً في الأدب الحديث. ومن الطبيعي أن تأتي إجابته مختلفةً عن إجابة "سارتر" وذلك لاختلاف المنظور بينهما، فهو يتناول الأدب باعتباره نشاطا إنسانيا "تخَيُّليا". وبعد ذلك، قام بتتبع سَيْرُورة المصطلح في العصر الحديث، وقد كانت البداية-بالنسبة له -مرتبطةً بظهور الشّكلانيين على مسرح الأدب العالمي، حيث يرى أن نظرية الأدب قد بدأتْ معهم، خاصة منذ مقالات "شْلُوفِسْكي"[3] الباكرة. لقد استندت إجابة "ايجلتون" إلى اللغويات والعلوم اللّسانية، التي كانت قد بلغت ذروة سيادتها على الساحة الأدبية في الربع الأخير من القرن الماضي، خاصة فيما يتعلق بنظريات القراءة والتلقي والتأويل، كما أنّه استفاد كثيرًا من انجازات الاتجاهات الظّاهراتية والبنيوية والتَّفْكيكية، فيما يتعلق بالعلاقة بين المثلث الإبداعي: الكاتب - النص- القارئ. لذا، فقد

3- فيكتور بوريسوفيتش شكلوفسكي 1893 - 1984 كاتب وأديب روسي، قدم مساهمته إلى الشكلية الروسية بمقالتة "الفن من أجل الفن"، 1917، والعديد من المقالات النظرية

كان من الطّبيعي أن تكون آراء "ايجلتون" أكثر نضجا في هذا الاتجاه، مقارنة بآراء "سارتر."[4] وإذا كان"سارتر" قد ركّز في إجابته على مبدأي: الالتزام والحرية، فان "إيجيلتون" قد ركز على مبدأ أساسي في بحثه داخل تلك الإشكالية، عن إجابة السؤال الخالد، وتَمَثّل هذا المبدأ في أن الأدب بطبيعته هو خطاب غير نفْعي، على العكس من قناعات "سارتر"، بمعنى أنه على حد تعبير "إيجلتون" نفسه- هو لغة تشير إلى نفسها فقط، وهو- هنا- يقترب كثيرا من تصورات الشكلانيين الروس عن مفهوم الأدب. على أن مناقشة "إيجلتون" في هذا الاتجاه، لمفهوم "الإغراب" في الأدب والتقرير في لغة النثر العادية، إنما تشير إلى أننا إزاء ناقد، قد يكون بسيطا، لكنه يتميز بالعمق، أو- على حد تعبيره - فلقد حاول أن يجعل الموضوع "شعبيا" أي في متناول غير المتخصصين،. دون أن يجعله ذلك مبتذَلا، وقد نجح في ذلك بالفعل. ورغم أن هناك محاولات أخرى قد جرت، للإجابة على تساؤل: ما الأدب؟، إلا أن تناول كل من "سارتر" و"إيجلتون"، ظل هو الأكثر عمقا وأصالة، ربما لأن محاولتهما كانتا اختزالا للمحاولات الأخرى، لذلك. ظلتا تتميزان بامتداد التأثير منذ نهاية الأربعينات من القرن الماضي، وحتى الآن.

4- عبد العزيز الموافي: المرجع السابق